كتاب العلم

٢٤١ـ باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله

قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله عزَّ وجلَّ. والمراد بالعلم الذي وردت به النصوص في فضله والثواب عليه ورفعة أهله وكونهم ورثة الأنبياء، إنما هو علم الشريعة عقيدة وعملاً، وهو العلم الذي يثنى على من أدركه وعلى من علمه وتعلمه وليس علم ما يتعلق بالدنيا كالحساب والهندسة، وما أشبه ذلك.

والعلم جهاد، جهاد في سبيل الله، وهو عديل له في كتاب الله، وعليه يُبنى الجهاد وسائر الإسلام؛ لأن من لا يعلم لا يمكن أن يعمل على الوجه المطلوب ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. يعني لولا نفر في الجهاد من المؤمنين من كل فرقة منهم طائفة، وقعدت طائفة أخرى ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم أي رجعوا من الغزو لعلهم يحذرون.

فجعل الله تعالى الفقه في دين الله معادلاً للجهاد في سبيل الله، بل أولى منه، لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ولا أن يصلي المصلي ولا أن يزكي المزكي ولا أن يصوم الصائم ولا أن يحج الحاج ولا أن يعتمر المعتمر ولا أن يأكل الآكل ولا أن يشرب الشارب ولا أن ينام النائم ولا أن يستيقظ المستيقظ إلا بالعلم، فالعلم هو أصل كل شيء ولذلك قال النبي ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**[1]**»**.

ولا فرق بين المجاهد الذي يسوي أسنة قوسه، وبين طالب العلم الذي يستخرج المسائل العلمية من بطون الكتب، كل منهم يعمل للجهاد في سبيل الله وبيان شريعة الله لعباد الله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله باب الجهاد بباب العلم، ليبين أنه مثله، بل إن بعض العلماء فضله على الجهاد في سبيل الله. والصحيح أن في ذلك تفصيلاً، فمن الناس من يكون الجهاد في حقه أفضل، ومن الناس من يكون طلب العلم في حقه أفضل. فإذا كان الرجل قويًا شجاعًا مقدامًا، لكنه في العلم بضاعته مزجاة، قليل الحفظ قليل الفهم يصعب عليه تلقي العلم، فهنا نقول: الجهاد في حقه أفضل، وإذا كان بالعكس، رجلاً ليس عنده تلك القوة البدنية أو الشجاعة القلبية، لكن عنده حفظًا وفهمًا واجتهادًا، فهذا طلب العلم في حقه أفضل، فإن تساوى الأمران فإن من أهل العلم من رجَّح طلب العلم، لأنه أصل، ولأنه ينتفع به الناس كلهم القاصي والداني، وينتفع به من كان حيًّا

(١) سيأتي تخريجه.

ومن يولد بعده، وينتفع به صاحبه في حياته وبعد مماته، كما قال النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**(١)».

وجميع الناس محتاجون للعلم، الأنبياء وغير الأنبياء، كلهم محتاجون للعلم، ولهذا أمر الله نبيه أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. فالرسل محتاجون إلى العلم والزيادة فيه، وإلى سؤال الله عزَّ وجلَّ أن يزيدهم منه، فمَنْ دون الأنبياء من باب أولى. فجدير بالعبد أن يسأل الله دائمًا أن يزيده من العلم، ولكن إذا سأل الله أن يزيده من العلم فلابد أن يسعى في الأسباب التي يحصل بها العلم، أما أن يطلبه ويقول: رب زدني علمًا وهو لم يفعل الأسباب فهذا ليس من الحكمة ولا من الصواب، هذا كمن قال اللهم ارزقني ولدًا ولا يتزوج، من أين يأتيك هذا الولد؟ فلابد إذا سألت الله شيئًا أن تسعى للأسباب التي يحصل بها، لأن الله حكيم. قرن المسببات بأسبابها، وفي هذه الآية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. دليلٌ على فضل العلم، لم يقل الله لنبيه: وقل رب زدني مالاً، بل قال له: وقل رب زدني علمًا، وقال له في الدنيا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. أسأل الله تعالى أن يمن علينا وعليكم بالعلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله

(١) رواه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (٣٠٨٤).

على بصيرة.

* * *

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[المجادلة: ١١].

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله، وقد سبق لنا شيء من الكلام على العلم وبيان أن العلم الممدوح الذي فيه الثواب هو العلم في شريعة الله عزَّ وجلَّ، وما كان وسيلة لذلك كعلم النحو والصرف وما إليهما، فإنه وسيلة، وقد قال العلماء: إن للوسائل أحكام المقاصد، والعلم الشرعي ينقسم إلى قسمين:

قسم فرض عين: يجب على كل إنسان أن يتعلمه.

وقسم آخر فرض كفاية: إذا قام به من يكفي سقط عن بقية الناس.

وقسم ثالث يتفرع عن الثاني: سنة وهو إذا ما قام بالعلم من يكفي فيكون فيه للباقين سنة. أما العلم الفرض العين الذي يجب على كل إنسان، فهو أن يتعلم الإنسان ما يحتاج إليه في أمور دينه الواجبة، كأن يتعلم ما يتعلق بتوحيد الله وبيان ما ينافيه ويناقضه من الشرك كلِّه جليه وخفيه، صغيره وكبيره، لأن هذا مفروض على كل أحد، لأن كل إنسان يجب عليه أن يعرف توحيد الله ويوحد الله تعالى بما يختص به جلَّ وعلا، كذلك أيضًا الصلاة، الصلاة مفروضة على كل أحد لا تسقط عن المسلم أبدًا ما دام عقله ثابتًا، فلابد أن يتعلمها ويتعلم ما يلزم لها من طهارة

وغيرها حتى يعبد الله على بصيرة.

الزكاة لا يجب تعلّمها على كل أحد، من عنده مال وجب عليه أن يتعلم ما هو المال الزكوي وما مقدار النصاب، وما مقدار الواجب، ومن الذي تؤتى إليه الزكاة، وما أشبه ذلك. لكن لا يجب على كل واحد أن يتعلم الزكاة فإذا كان فقيرًا فلماذا نوجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة وهو ليس عنده مال. الصوم يجب تعلمه على كل أحد، يجب أن يتعلم الإنسان ماذا يصوم عنه، وما هي المفطرات وما هي نواقض الصوم، وما هي منقصاته، وما أشبه ذلك. كل إنسان يصوم يجب عليه أن يتعلم ذلك. الحج لا يجب على كل أحد أن يتعلمه وإنما يجب أن يتعلمه من استطاع إليه سبيلاً حتى يحج على بصيرة.

ومع الأسف أن كثيرًا من الناس لا يتعلمون ما يجب عليهم من أحكام دينهم فيقعون في المتاعب، ولا سيما في الحج وما أكثر الذين يسألون عن الحج وتجدهم قد وقعوا في خلل كبير، لأنهم لم يتعلموا قبل أن يعملوا، البيع مثلاً: أحكام البيع لا يجب على كل إنسان أن يتعلم أحكام البيع، لكن من أراد أن يتجر ويبيع ويشتري لابد أن يتعلم ما هو البيع الممنوع وما هو البيع المشروع حتى يكون على بصيرة من أمره، وهلم جرا.

فتبين الآن أن العلم الشرعي ينقسم إلى قسمين: الأول فرض عين، والثاني فرض كفاية. وفرض الكفاية يستحب لمن زاد على من تقوم به الكفاية أن يتعلم ليحفظ شريعة الله ويهدي الله به عباده وينتفع الناس به.

ولا شيء أشرف من العلم، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى لنبيه

ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

ربنا عزَّ وجلَّ يقول للرسول ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، الرسول عليه الصلاة والسلام محتاج إلى زيادة العلم، فدل ذلك على فضيلة العلم لأنه لم يقل له: وقل رب زدني مالاً، زدني زوجات، زدني أولادًا بل قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ومما يدل على فضل العلم قول الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. بين كل الناس، قول عام ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والجواب مفهوم، أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وهذا أمر منتف بمقتضى طبيعة الإنسان وفطرته، أنه لا يستوي الإنسان الذي يعلم والذي لا يعلم، لكن الله سبحانه وتعالى ذكره على صيغة الاستفهام ليكون متضمنًا للتحدي، ليكون هذا النفي متضمنًا للتحدي، يعني هات لي أحدًا يقول إنه يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، لا أحد يقول بذلك. ولا يمكن أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أبدًا حتى في أمور الدنيا لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

وقال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾. يعني قوموا

وارتفعوا ﴿ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ . فإذا دخل إنسان والمجلس مليء بالجالسين، وقال: تفسحوا، فليفسحوا له، ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، يعني يوسع لكم الأمور، لأنكم وسعتم على هذا الداخل فيوسع الله عليكم، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عامل أخاه بشيء عامله الله تعالى بمثله، إن يسرت على معسر يسر الله عليك، إن فرَّجت عن مؤمن كربة، فرَّج الله عنك كربة من كرب يوم القيامة، إن أعنت أحدًا كان الله في عونك، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ولهذا قال: ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ . يعني قوموا فقوموا، وفي هذا دليلٌ على أنه لا حرج على الإنسان أن يقول للجماعة الذين عنده انشزوا، اخرجوا بارك الله فيكم، انتهى شغلكم لا حياء في ذلك ولا غضاضة على الإنسان حتى الجلوس لا ينبغي لهم أن يكونوا ثقلاء، لا يقومون إلا إذا قيل قوموا، ينبغي للإنسان أن يخفف الجلوس عند الناس ما استطاع، إلا إذا علم من صاحبه أنه يحب أن تبقى عنده فلا بأس، وإلا فالأصل ألا تطيل الجلوس عند الناس، لأن الناس قد يكون لهم شغل، ويستحيون أن يقولوا قم، لكن من قال: قم، فلا حرج عليهم. حتى إن الله عزَّ وجلَّ قال لجلساء نبيه الذين يجلسون عنده بعد أن ينتهوا من الطعام قال لهم سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. يعني معناه إذا انتهيتم من الطعام فاخرجوا، لا تجلسوا فإن ذلك يؤذي النبي ﷺ فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق فإذا قيل: ﴿ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ .

ومثل ذلك أيضًا إذا استأذن عليك أحد في البيت ففتحت له وقلت: ارجع، ليس هناك جلوس الآن، فلا حرج عليك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ [النور: ٢٨]. بعض الناس إذا أرجعته من عند الباب يغضب، والله يقول: ﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾. الأفضل أن ترجعوا، يزكيكم الله عزَّ وجلَّ، قال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾. ولم يعين عزَّ وجلَّ الدرجات لأن هذه الدرجات بحسب ما مع الإنسان من الإيمان والعلم، كلما قوي الإيمان وكلما كثر العلم وانتفع الإنسان به ونفع غيره كان أكثر درجات، فهلم فأكثر، قوِّ إيمانك، أكثرْ من طلب العلم ما استطعت، فإن الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾. رفعني الله وإياكم بذكره وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

* * *

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

١٣٧٦ ـ وَعَنْ مُعَاوِيةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين[1]» متفقٌ عليه.

الشـــرح

ساق الحافظ النووي ـ رحمه الله ـ بعض ما يتعلق ـ من كتاب الله عزَّ وجلَّ في فضل العلم. وسبق الكلام على آيات ثلاث مما ذكره في باب

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم(٦٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم(١٧١٩).

فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله .

أما الآية الرابعة فهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

والخشية: هي الخوف المقرون بالتعظيم، فهي أخص من الخوف فكل خشية خوف، وليس كل خوف خشية، ولهذا يخاف الإنسان من الأسد ولكنه لا يخشاه، أما الله عزَّ وجلَّ فإن الإنسان يخاف منه ويخشاه، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ولكن من هم أهل الخشية حقًّا؟ أهل الخشية حقًّا هم العلماء، العلماء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، الذين يعرفون ما لله عزَّ وجلَّ من الحكم والأسرار في مقدوراته ومشروعاته جلَّ وعلا، وأنه سبحانه وتعالى كامل من كل الوجوه، ليس في أفعاله نقص ولا في أحكامه نقص فلهذا يخشون الله عزَّ وجلَّ، وفي هذا دليلٌ على فضيلة العلم وأنه من أسباب خشية الله، والإنسان إذا وفق للخشية عصم من الذنوب، وإن أذنب استغفر وتاب إلى الله عزَّ وجلَّ، لأنه يخشى الله، أي يخافه ويعظمه سبحانه وتعالى .

ثم ذكر الأحاديث وصدَّرها بحديث معاوية بن أبي سفيان أن النبي ﷺ قال : «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» والله جلَّ وعلا يريد في خلقه ما يشاء من خير وشر، لكن كل إرادته خير وأما مراداته ففيها الخير والشر، كل قضائه خير وأما مقضياته ففيها الخير والشر، والناس أوعية منهم من يعلم الله تعالى في قلبه خيرًا فيوفقه، ومنهم من يعلم الله في قلبه شرًّا فيخذله والعياذ بالله قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]. لم يزغ قلوبهم إلا حين زاغوا هم أولاً وأرادوا الشر فلم يوفقوا للخير .

أما من علم الله في قلبه خيرًا فإن الله يوفقه، فإذا علم الله في قلب الإنسان خيرًا أراد به الخير، وإذا أراد به الخير فقهه في دينه، وأعطاه من العلم بشريعته ما لم يعط أحدًا من الناس وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يحرص غاية الحرص على الفقه في الدين، لأن الله تعالى إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه، ومن أسباب الفقه أن تتعلم وأن تحرص لتنال هذه المرتبة العظيمة أن الله يريد بك الخير فاحرص على الفقه في دين الله، والفقه في الدين ليس هو العلم فقط، بل العلم والعمل ولهذا حذَّر السلف من كثرة القراء وقلة الفقهاء، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**كيف بكم إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم**» فإذا علم الإنسان بشيء من شريعة الله ولكن لم يعمل بها فليس بفقيه، حتى لو كان يحفظ أكبر كتاب في الفقه عن ظهر قلب ويفهمه، لكن لم يعمل به فإن هذا لا يسمى فقيهًا، يسمى قارئًا، بل الفقيه هو الذي يعمل بما علم، فيعلم أولاً، ثم يعمل ثانيًا، ولهذا قال قوم شعيب لشعيب: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود: ٩١]. لأنهم حرموا الخير لعلم الله ما في قلوبهم من الشر.

فاحرص على العلم، واحرص على العمل به لتكون ممن أراد الله به خيرًا، أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من هؤلاء الذين فقهوا في دين الله وعملوا وعلَّموا ونفعوا وانتفعوا به.

* * *

١٣٧٧ ـ وَعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاه الله الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، ويُعَلِّمُهَا[1]» متفق عليه. والمرادُ بالحَسَد: الْغِبْطَةُ، وَهُوَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَهُ.

الشــرح

أورد المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله تعالى الأحاديث الواردة في فضل العلم، وقد سبق حديث معاوية رضي الله عنه: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

ثم ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين». الحسد يطلق ويُراد به الحسد المحرم الذي هو من كبائر الذنوب، وهو أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره، تجد إنسانًا عنده مال فتكره، تقول: ليت الله لم يرزقه، وآخر عنده علم تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه العلم، وثالث عنده أولاد صالحون تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه، وهلم جرا، هذا الحسد هو من كبائر الذنوب.

وهو من خصال اليهود كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

وقال عنهم: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ

---

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم(٧١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم(١٣٥٢).

إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أما النوع الثاني من الحسد فهو حسد الغبطة: يعني الذي تغبط به غيرك أن أنعم الله عليه بمال أو علم أو ولد أو جاه أو غير ذلك، الناس يغبط بعضهم بعضًا على ما آتاهم الله من النعم، يقول: ما شاء الله فلان أعطاه الله كذا، فلان أعطاه الله كذا، لكن لا غبطة إلا في شيئين، الغبطة الحقيقية التي يغبط عليها الإنسان شيئان.

الأول: العلم، العلم النافع وهو المراد بقوله: «**رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**» هذا العلم، إذا منَّ الله على إنسان بعلم فصار يقضي به بين الناس سواء كان قاضيًا أو غير قاضٍ وكذلك يقضي به في نفسه وعلى نفسه ويعلم الناس، فهذا هو الغبطة؛ لأن العلم هو أنفع شيء، أنفع من المال، وأنفع للإنسان من الأعمال الصالحة، لأنه إذا مات وانتفع الناس بعلمه جرى ذلك عليه إلى يوم القيامة، كلما انتفع به أي إنسان فله أجر، العلم كلما أنفقت منه وعلمته ازداد، وهذا من أقوى ما يثبت به العلم. ويبقى حفظه، فإذا علَّمت غيرك علمك الله، وإذا علمت غيرك ثبت العلم في نفسك، لكن لا تتقدم للتعليم إلا وأنت أهل له حتى ينفع الله بك، وحتى لا تفشل أمام الناس، لأن الذي يتقدم للتعليم وليس أهلاً له بين أمرين: إما أن يقول بالباطل وهو لا يشعر، وإما أن يفشل وإذا سئل عجز عن الإجابة مثلاً.

فهذا العلم كل ما أنفقت منه ازداد، والعلم - أيضًا - لا يحتاج إلى

تعب، إلا في تعلمه، لكن لا يحتاج مثلاً إلى خزائن كالمال الذي يحتاج إلى خزائن وإلى محاسبين وإلى حسابات وإلى تعب، لكن العلم لا يحتاج إلى هذا، خزينته قلبك، هذه الخزينة، وهي معك أينما كنت فلا تخشى عليه، لا تخشى أن يسرق ولا أن يحرق لأنه في قلبك.

فالمهم أن العلم هو أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان بعد الإسلام والإيمان ولهذا قال: «رجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

أما الثاني: «فهو رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق»، يعني صار يبذل ماله فيما يرضي الله عزَّ وجلَّ، لا يبذله في حرام، ولا يبذله في لغو، وإنما يبذله فيما يرضي الله، سلطه الله على هلكته يعني على إنفاقه في الحق، هذا أيضًا ممن يغبط، نحن لا نغبط من عنده مال عظيم لكنه بخيل لا ينفع الناس، بل هذا نتألم له ونقول هذا المسكين كيف يستطيع الجواب على حساب يوم القيامة على هذا المال، من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه وكيف تصرف فيه، لكن إذا رأينا رجلاً آتاه الله مالاً وصار ينفقه فيما يرضي الله، نقول: ما شاء الله هذا يغبط.

لا نغبط إنسانًا آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في القصور والديكورات والسيارات الفخمة نحن لا نغبطه على هذا. بل نقول هذا مسرف إذا كان تجاوز الحد فيما ينفق، والله لا يحب المسرفين.

كذلك لا نغبط شخصًا عنده مال فصار ينفق منه جوائز في أشياء لا ينتفع الناس بها لا في دينهم ولا في دنياهم، فإن بعض الناس يعطي جوائز على ألعاب وأشياء من الأمور التي ليس بها خير لا في الدنيا ولا في

الآخرة، هذا لا نغبطه، لأنه لم يسلط على هلكة ماله في الحق. إنما الذي يغبط من سلطه الله على هلكة ماله في الحق.

أيضًا لا نحسد إنسانًا آتاه الله مالاً فصار كل ما عنَّ له أن يتزوج تزوج، وجمع عنده من النساء الحسان ما لا يجمعه غيره، هذا لا نغبطه أيضًا. إلا إذا كان سلطه الله على هلكته في الحق، وأراد بذلك تحصين فرجه وتحصيل السنة، وكثرة النسل، فهذا مقصود شرعي يغبط عليه الإنسان.

والشاهد في هذا الحديث في باب فضل العلم هو الجزء الأول منه [من آتاه الله الحكمة]، يعني العلم، فقضى بها وعلمها، وهذا خير الرجلين، يعني خير من صاحب المال الذي سلط على هلكته في الحق. نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

* * *

١٣٧٨ - وعَنْ أَبِي موسَى رضي الله عنه قَالَ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ والْعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا منه وسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ(١)». متفقٌ عليه.

---

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلَّم، رقم(٧٧)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ، رقم(٤٢٣٢).

الشـــرح

في هذا الحديث الذي ساقه الحافظ النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله تعالى، الذي رواه أبو موسى عن النبي ﷺ مثل بديع عجيب فقد مثل النبي ﷺ ما بعثه الله به من العلم والهدى، مثّله بغيث ـ بمطر ـ ووجه الشبه أن بالغيث تحيا الأرض وبالوحي تحيا القلوب. ولهذا سمى الله سبحانه وتعالى ما بعث به محمدًا ﷺ سماه روحًا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

فالوحي غيث، لكنه كما مثل الرسول ﷺ نزل على الأرض فصارت الأرض ثلاثة أيام:

القسم الأول: قسم قبل المطر وشرب وأنبت العشب الكثير والكلأ فانتفع الناس بذلك، لأن الأرض أنبتت.

والقسم الثاني: قيعان لا تنبت لكن أمسكت الماء لم تشربه فسقى الناس منه وارتووا وزرعوا.

القسم الثالث: أرض قيعان بلعت الماء ولم تنبت سبخة تبلع الماء، ولكنها لا تنبت، فهذا مثل من فقه في دين الله فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع به رأسه. الصورة الأولى والثانية للمثل فيمن قبل الحق فعلم وتعلم

ونفع وانتفع، لكن الذين قبلوا الحق صاروا قسمين:

الأول: قسم آتاه الله تعالى فقهًا فصار يأخذ الفقه والأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولا يُعلم.

والثاني: راوية ولكنه ليس عنده ذلك الفقه يعني أنه يحكى الحديث ويرويه ويحفظه ولكنه ليس عنده فقه، وهذا كثيرٌ أيضًا، فما أكثر رجال الحديث الذين رووا الحديث لكنهم ليس عندهم فقه، ما هم إلا أوعية يأخذ الناس منهم، ولكن الذي يوزع من هذا الماء وينفع الناس به هم الفقهاء. هذان قسمان ـ قسم حفظ الشريعة ووعاها وفهمها وعلمها واستنبط منها الأحكام الكثيرة، وهؤلاء مثل الأرض التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وقسم آخر نَقَلَةٌ فقط، ينقلون الأحاديث وهؤلاء كالأرض التي أمسكت الماء فانتفع الناس به وارتووا منه، لأن الناس يأخذون من هؤلاء الرواة للحديث، ثم يستنبطون منه الأحكام وينفعون الناس بها.

القسم الثالث: أرض لم تنتفع بالغيث، وإنما قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ فهؤلاء ليس فيهم خير، لم ينتفعوا بوحي الله ولم يرفعوا به رأسًا، والعياذ بالله، يكذبون بالخبر ويستكبرون عن الأمر، فهؤلاء هم شر الأقسام. نسأل الله العافية.

فانظر -أنت - في نفسك من أي الأرضين الثلاث أنت، هل أنت من الأرض التي قبلت الماء وأنبتت العشب والكلأ، أو من الأرض الثانية، أو من الأرض الثالثة والعياذ بالله.

وفي الحديث حسن تعليم الرسول ﷺ حيث يضرب الأمثال بالمعاني المعقولة بأشياء محسوسة، لأن إدراك المحسوس أقرب من إدراك المعقول، وما أكثر الأمثال في القرآن ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

هذا مثل لو جاء الكلام هكذا: من أنفق في سبيل الله حبة فله سبعمائة حبة، لم يرسخ في الذهن كرسوخ المثل، لأن المثل الذي يستحضره الإنسان يرسخ قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فضرب الأمثال تقريب للعلم وترسيخ له وإعانة على الفهم، لهذا ينبغي لك إذا حدثت عاميًا ولم يفهم أن تضرب له مثلاً، اضرب له المثل بشيء يعقله ويعرفه حتى يعرف المعاني المعقولة بواسطة الأشياء المحسوسة. والله الموفق.

* * *

١٣٧٩ - وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «فوالله لأنْ يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ[(١)]» متفقٌ عليه.

١٣٨٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وحدِّثوا عَنْ بَنِي إسْرَائيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس، رقم(٢٧٢٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم(٤٤٢٣).

فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ[(١)]» رواه البخاري.

الشـــرح

ساق المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان فضل العلم، حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب حين أعطاه الراية يوم خيبر قال: «**امض على رسلك ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لئن يهدي بك الله رجلاً واحدً خير لك من حُمْر النعم**» أَقسم ﷺ أن الله لو هدى به رجلاً واحدًا لكان خيرًا له من حمر النعم. والحُمْر بسكون الميم جمع حمراء، وأما الحُمُر بضم الميم فهي جمع حمار، ولهذا يخطىء بعض الطلبة فيقول: خيرٌ لك من حُمُر النعم وهذا غلط، لأن الحُمُر جمع حمار، كما قال الله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٥٠]. أما حُمْر بسكون الميم فهي جمع حمراء وكذلك جمع أحمر لكنها هنا جمع حمراء، وهي الناقة الحمراء، وكانت أعجب المال إلى العرب في ذلك الزمان، وأحب المال إلى العرب في ذلك الزمن، فإذا هدى الله بك رجلاً واحدًا كان ذلك خيرًا لك من حمر النعم، ففي هذا حث على العلم وعلى التعليم وعلى الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى الله إلا وهو يعلم، فإذا كان يعلِّم ما يعلم من شريعة الله ودعا إلى ذلك كان هذا دليلاً على فضل العلم.

ثم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن أبيه أن

---

(١) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم(٣٢٠٢).

النبي ﷺ قال: «**بلغوا عني ولو آية**».

بلغوا عني: يعني بلغوا الناس بما أقول وبما أفعل وبجميع سنته عليه الصلاة والسلام «**بلغوا عني ولو آية**» من كتاب الله. ولو هنا للتقليل، يعني لا يَقُل الإنسان أنا لا أبلغ إلا إذا كنت عالمًا كبيرًا، لا، إنما يبلغ الإنسان ولو آية بشرط أن يكون قد علمها وأنها من كلام الرسول ﷺ ولهذا قال في آخر الحديث: «**ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» من كذب على الرسول متعمدًا يعلم أنه كاذب، فليتبوأ مقعده من النار، هنا اللام للأمر لكن المراد بالأمر هنا الخبر، يعني فقد تبوأ مقعده من النار والعياذ بالله - أي: فقد استحق أن يكون من ساكني النار، لأن الكذب على الرسول ليس كالكذب على واحد من الناس، الكذب على الرسول كذب على الله عزَّ وجلَّ، ثم هو كذب على الشريعة لأن ما يخبر به الرسول ﷺ من الوحي هو من شريعة الله وكذلك يُقال: الكذب على العالم ليس كالكذب على عامة الناس. يعني مثلاً تقول: قال فلان كذا وكذا، قال: هذا حرام هذا حلال، هذا واجب، هذا سنة، - وأنت تكذب - هذا أيضًا أشد من الكذب على عامة الناس، لأن العلماء ورثة الأنبياء يبلغون شريعة الله إرثًا لرسول الله ﷺ، فإذا كذبت عليهم، وقلت: قال العالم فلان: كذا وكذا - وأنت تكذب - فهذا إثمه عظيم، نسأل الله العافية، بعض الناس والعياذ بالله إذا اشتهى شيئًا يكف الناس عنه، قال: قال العالم الفلاني: هذا حرام وهو يكذب، لكن يعرف أن الناس إذا نسب العلم إلى فلان قبلوه، فيكذب، أو يقول: قال فلان هذا واجب، وهو كاذب، وهذا أشد من الكذب على عامة الناس.

فالحاصل أن من كذب على الرسول ﷺ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار، ومن نقل عنه حديثًا كذبًا يعلم أنه كذب فهو أحد الكاذبين، يعني فليتبوأ مقعده من النار.

وما أكثر ما يُنشر من النشرات التي فيها الترغيب أو الترهيب وهي مكذوبة على الرسول ﷺ لكن بعض المجتهدين الجهال ينشرون هذه النشرات ويوزعونها بكمية كبيرة يقولون: نعظ الناس بهذا، كيف تعظونهم بشيء كذب؟ ولهذا يجب الحذر من هذه المنشورات التي تنشر في المساجد أو تعلق على الأبواب، أبواب المساجد أو غير ذلك، يجب الحذر منها، وربما يكون فيها أشياء مكذوبة فيكون الذي ينشرها قد تبوأ مقعده من النار إذا علم أنها كذب.

وقال في حديث عبد الله بن عمرو: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»، بنو إسرائيل اليهود والنصارى إذا قالوا قولاً فحدث عنهم ولا حرج عليك، بشرط أن لا تعلم أنه مخالف للشريعة، لأن بني إسرائيل عندهم كذب، يُحرّفون الكلم عن مواضعه ويكذبون، فإذا أخبروك بخبر فلا بأس أن تحدث به بشرط أن لا يكون مخالفًا لما جاء في شريعة الرسول ﷺ فإن كان مخالفًا له فإنه لا يجوز أن يحدث، إلا إذا حدث به ليبين أنه باطل فلا حرج، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

١٣٨١ ـ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ له بِهِ طريقًا إلى الجنَّة[1]» رواه مسلم.

١٣٨٢ ـ وَعَنْهُ أيْضًا رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدىً كانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مِثلُ مَنْ تَبعَهُ لا يَنْقُصُ ذلكَ من أُجُورِهِمْ شيئًا[2]». رواه مسلم.

الشــرح

هذه الأحاديث الثلاثة في بيان فضل العلم وآثاره الحميدة، عن أبي هُريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة**» سلوك الطريق يشمل الطريق الحسي الذي تقرعه الأقدام، مثل أن يأتي الإنسان من بيته إلى مكان العلم سواء كان مكان العلم مسجدًا أو مدرسة أو كلية أو غير ذلك، ومن ذلك أيضًا الرحلة في طلب العلم أن يرتحل الإنسان من بلده إلى بلد آخر يلتمس العلم فهذا سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، وقد رحل جابر بن عبد الله الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ في حديث واحد مسيرة شهر كامل على الرواحل على الإبل، سار من بلده إلى بلد مسيرة شهر من أجل حديث واحد رواه عبد الله بن أنيس عن النبي ﷺ.

أما الثاني: فهو الطريق المعنوي، وهو أن يلتمس العلم من أفواه

---

(١) رواه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم(٤٨٦٧).

(٢) رواه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم(٤٨٣١).

العلماء ومن بطون الكتب، فالذي يراجع الكتب للعثور على حكم مسألة شرعية وإن كان جالسًا على كرسيه فإنه قد سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا. ومن جلس إلى شيخ يتعلم منه فإنه قد سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ولو كان جالسًا، فسلوك الطريق ينقسم إلى قسمين:

قسمٌ يُراد به الطريق الذي تقرعه الأقدام. والثاني يُراد به الطريق الذي يتوصل به إلى العلم وإن كان جالسًا؛ من سلك هذا الطريق سهل الله له به طريقًا إلى الجنة؛ لأن العلم الشرعي تعرف به حكم ما أنزل الله، تعرف به شريعة الله، تعرف به أوامر الله، تعرف به نواهي الله، فتستدل به على الطريق الذي يرضي الله عزَّ وجلَّ ويوصلك إلى الجنة، وكلما ازددت حرصًا في سلوك الطرق الموصلة إلى العلم ازددت طرقًا توصلك إلى الجنة - نسأل الله من فضله العظيم -.

وفي هذا الحديث من الترغيب في طلب العلم ما لا يخفى على أحد، فينبغي للإنسان أن ينتهز الفرصة ولا سيما الشاب الذي يحفظ سريعًا، ويمكث في ذهنه ما حفظه ينبغي له أن يبادر الوقت، ويبادر العلم قبل أن يأتيه ما يشغله عن ذلك.

أما الحديث الثاني فهو أيضًا عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى فله أجر من اتبعه**» يعني إلى يوم القيامة «**من دعا إلى هدى**» يعني علم الناس، فإن الداعي إلى الهدى هو الذي يعلم الناس ويبين لهم الحق ويرشدهم إليه، فهذا له مثل أجر من فعله، مثلاً دللت إنسانًا على أنه ينبغي له أن يوتر، يجعل آخر صلاته في الليل وترًا، كما أمر النبي ﷺ قال:

«**اجعلوا آخر صلاتكم في الليل وترًا**[1]» وحثثت على الوتر ورغبت فيه فأوتر أحد من الناس بناء على كلامك وعلى توجيهك، فلك مثل أجره، فإن علم بذلك آخر منك أو من الذي علمته أنت فلك مثل أجره، وإن تسلسلوا إلى يوم القيامة.

وفي هذا دليلٌ على كثرة أجور النبي ﷺ لأنه دل الأمة على الهدى فكل منَ عمل من هذه الأمة بهدي فللنبي ﷺ أجره من غير أن ينقص من أجورهم شيء، فالأجر تام للفاعل والداعي، وإذا تبين أن النبي ﷺ له أجر ما عملته أمته، تبين بذلك خطأ من يهدي ثواب العبادة للرسول ﷺ، يعني مثلاً بعض الناس اجتهد وصار يصلي ركعتين ويقول اللهم اجعل ثوابها للرسول ﷺ، يقرأ قرآنًا ويقول: اللهم اجعل ثوابه للرسول ﷺ، هذا غلط وأول ما حدث هذا في القرن الرابع الهجري، يعني بعد ثلاثمائة سنة من موت الرسول، استحسن بعض العلماء أنه يفعل هذا، قال: أنا كما أهدي لأبي وأمي صدقة أو صلاة أو ذكرًا أهديه للرسول ﷺ نقول: هذا خطأ فنقول وسفه في التصور وضلال في الدين، كيف ذلك؟ نسأله ونقول هل أنت أعظم حبًّا للرسول ﷺ من أبي بكر رضي الله عنه؟ فيقول: لا. أعظم من عمر رضي الله عنه؟ لا. أعظم من عثمان رضي الله عنه؟ لا. أعظم من علي رضي الله عنه؟ لا. أعظم من ابن عباس، ابن مسعود، من الصحابة

(١) رواه البخاري: كتاب الجمعة، باب ليجعل آخر صلاة وترًا، رقم(٩٤٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم(١٢٤٥).

رضوان الله عليهم؟ لا . هل أحد منهم أهدى للرسول عليه الصلاة والسلام عملاً صالحًا؟ أبدًا، وكذلك التابعون والأئمة رحمهم الله الإمام أحمد بن حنبل، الشافعي، مالك، أبو حنيفة ما فعلوا هذا، ما الذي أطلعك على شيء لم يعلموا به أو لم يعملوا به، من أنت؟ فهو خطأ في التصور وضلال في الدين؛ لأن أي عمل تعمله ولو كان ثوابه لك فللرسول ﷺ مثله، وإن لم تقل شيئًا. أي عملٍ، لو تصلي ركعتين أجرهما لك وللرسول مثله من غير أن ينقص من أجرك شيء، إذًا ما الفائدة؟ لا يعني إهداؤك القرب للرسول إلا أنك حرمت نفسك من الأجر فقط، وللرسول مثل أجرك سواء أهديت له أو لم تهدِ؛ لأنه يقول ﷺ: «**من دعا إلى هدى فله أجر من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء**» فلا حاجة.

إذًا نأخذ من هذا الحديث فضيلة العلم، لأن العلم به الدلالة على الهدى والحث على التقوى فالعلم أفضل بكثير من المال حتى لو تصدق الإنسان بأموال عظيمة طائلة فالعلم ونشر العلم أفضل.

وأضرب لكم مثلا الآن، في عهد أبي هريرة رضي الله عنه خلفاء ملكوا الدنيا، وفي عهد الإمام أحمد رحمه الله أغنياء ملكوا أموالاً عظيمة وتصدقوا وأوقفوا، في عهد من بعدهم كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم رحمهما الله أناس أغنياء تصدقوا وأنفقوا وأوقفوا أين ذهب المال؟ أين ذهب ما أنفقوه؟ أين ذهب ما وقفوه؟، لقد ذهب فلا يوجد له أثر الآن، لكن أحاديث أبي هريرة تتلى في كل وقت ليلاً ونهارًا ويأتيه أجرها، الأئمة أيضًا علمهم وفقههم منشور بين الأمة يأتيهم أجرهم وهكذا شيخ الإسلام

ابن تيمية، وابن القيم وغيرهم من العلماء ماتوا لكن ذكرهم حي باق يعلمون الناس وهم في قبورهم، ينالهم الأجر وهم في قبورهم، وهذا يدل على أن العلم أفضل بكثير من المال وأنفع للإنسان، وسيأتي إن شاء الله تعالى في حديث أبي هريرة الذي ذكره المؤلف: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»** والله الموفق.

* * *

١٣٨٣ ـ وعَنْهُ قالَ قالَ رسُولُ الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صالحٍ يَدعُو لَهُ[١]» رواه مسلم.

الشــرح

ساق المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله تعالى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»** وهذا الحديث فيه حث الإنسان على المبادرة بالأعمال الصالحة؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت، فليبادر قبل أن ينقطع العمل بالعمل الصالح الذي يزداد به رفعة عند الله سبحانه وتعالى وثوابًا، ومن المعلوم أن كل واحد منا لا يعلم متى يموت، ولا يعلم أين يموت، كما قال الله تعالى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ

(١) رواه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم(٣٠٨٤).

تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

فإذا كان الأمر كذلك فإن العاقل ينتهز الفرص، فرص العمر في طاعة الله عزَّ وجلَّ قبل أن يأتيه الموت، ولم يستعتب ولم يتب، وقوله: «**انقطع عمله**» يشمل كل عمل لا يكتب له ولا عليه إذا مات لأنه انتقل إلى دار الجزاء، أما دار العمل فهي دار الدنيا، فالدور كلها بعد ذلك دور جزاء، إلا من ثلاث:

صدقة جارية: يعني أن يتصدق الإنسان بشيء ويستمر هذا الشيء وأحسن ما يكون المساجد، وبناء المساجد صدقة جارية، لأن أجر الباني مستمر ما دام هذا المسجد قائمًا ليلاً ونهارًا، والمسلمون يمكثون في المساجد في صلاتهم وقراءتهم وتعلمهم العلم وتعليمهم العلم وغير ذلك، ومن الصدقات الجارية أن يوقف الإنسان وقفًا من عقار أو بستان أو نحوه على الفقراء والمساكين أو على طلبة العلم أو على المجاهدين في سبيل الله أو ما أشبه ذلك، ومن الصدقات الجارية أن يطبع الإنسان كتبًا نافعة للمسلمين يقرءون فيها وينتفعون بها، سواء كانت من مؤلفين في عصره أو من مؤلفين سابقين، المهم أن تكون كتبًا نافعة ينتفع بها المسلمون من بعده.

ومن الصدقات الجارية إصلاح الطرق، فإن الإنسان إذا أصلح الطرق وأزال عنها الأذى واستمر الناس ينتفعون بهذا، فإن ذلك من الصدقات الجارية، والقاعدة في الصدقة الجارية: كل عمل صالح يستمر للإنسان بعد موته.

أما الثاني: «**فعلم ينتفع به**»: وهذا أعمها وأشملها وأنفعها أن يترك الإنسان وراءه علمًا ينتفع المسلمون به، سواء ورث من بعده بالتعليم الشفوي أو بالكتابة، فتأليف الكتب وتعليم الناس وتداول الناس لهذه المعلومات ما دام مستمرًا فأجر المعلم جار مستمر؛ لأن الناس ينتفعون بهذا العلم الذي ورثه.

والثالث: «**ولد صالح يدعو له**» ولد يشمل ذكرًا أو أنثى - يعني ابنًا أو بنتًا، يشمل ابنك من صلبك وابنتك من صلبك وأبناء أبنائك وأبناء بناتك وبنات أبنائك وبنات بناتك إلى آخره. ولد صالح يدعو للإنسان بعد موته، هذا أيضًا يُثاب عليه الإنسان، وانظر كيف قال الرسول ﷺ: «**ولد صالح يدعو له**»، ولم يقل: ولد صالح يصلي له، أو يقرأ له القرآن، أو يتصدق عنه، أو يصوم عنه، لا، ما قال هذا مع أن هذه كلها أعمال صالحة، بل قال: «**ولدٌ صالحٌ يدعو له**»، وفي هذا دليل على أن الدعاء لأبيه وأمه وجده وجدته أفضل من الصدقة عنهم، وأفضل من الصلاة لهم، وأفضل من الصيام لهم؛ لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدل أمته إلا على خير ما يعلَمُه لهم، ما من نبي بعثه الله إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم. فلو علم الرسول ﷺ أن كونك تتصدق عن أبيك وأمك أفضل من الدعاء، لقال الصدقة ولم يقل الدعاء، فلما عدل عن الصدقات، والصيام، والصلاة، وقراءة القرآن والمقام مقام تحدث عن الأعمال، لما عدل من هذه الأعمال إلى الدعاء علمنا يقينًا لا إشكال فيه أن الدعاء أفضل من ذلك، فلو سألنا سائل: أيهما أفضل أتصدق لأبي أو أدعو له؟ قلنا: الدعاء أفضل؛ لأن رسول الله ﷺ

هكذا أرشدنا، فقال: «أو ولد صالح يدعو له»، والعجيب أن العوام وأشباه العوام يظنون أن الإنسان إذا تصدق عن أبيه أو صام يومًا لأبيه أو قرأ حزبًا من القرآن لأبيه، أو ما أشبه ذلك، يرون أنه أفضل من الدعاء، ومصدر هذا هو الجهل، وإلا فمن تدبر النصوص علم أن الدعاء أفضل، ولهذا لم يرشد النبي ﷺ في أي حديث بحرف واحد إلى العمل الصالح يجعله الإنسان لوالده أبدًا، قال الإمام مالك أنه حصلت قضايا أعيان يسأله الصحابي، هل يتصدق عن أبيه وهو ميت أو عن أمه وهي ميتة؟

فيقول: نعم، لا بأس، لكنه لم يحث الأمة على ذلك ولم يرشدهم إلى هذا، لكن سُئل في قضايا أعيان، سعد بن عبادة رضي الله عنه سأله هل يتصدق بحائطه يعني ببستانه عن أمه بعد موتها، قال الرسول ﷺ: «نعم». وجاءه رجل قال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها، يعني ماتت بغتة، أفأتصدق عنها، قال: «نعم»، لكن لما أراد أن يشرع تشريعًا عامًا للأمة قال: «أو ولد صالح يدعو له». نسأل الله أن يغفر لنا ولكم ولوالدينا وللمسلمين جميعًا.

* * *

١٣٨٨ ـ وعَنْ أَبِي الدَّرداء رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ، وإنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمَاوَاتِ ومَنْ في الأرضِ حَتَّى الحِيتَانُ في الماءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَواكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأنْبِيَاءِ لَمْ

يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ. فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وافرٍ[١]» رواه أبوداود والترمذي.

الشـــرح

ساق المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله تعالى حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**» وقد سبق بيان معنى هذه الجملة، وفيه أيضًا من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في البحر**»، وهذا يدل على فضل العلم. «**وأن العلماء يستغفر لهم أهل السماء والأرض وحتى الحيتان في البحر وحتى الدواب في البر، كل شيء يستغفر له**» ولا تستغرب أن تكون هذه الحيوانات تستغفر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للعالم، لأن الله سبحانه وتعالي قال في القرآن الكريم على لسان موسى عليه الصلاة والسلام ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فالبهائم والحشرات تعلم ربها عزَّ وجلَّ وتعرفه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤].

كل شيء يسبح بحمد الله حتى إن الحصى سمع تسبيحه بين يدي النبي

---

(١) رواه أحمد (٥/١٩٦)، وأبوداود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم(٣١٥٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم(٢٦٠٦)، وابن ماجه: المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم(٢١٩).

ﷺ وهو حصى؛ لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه حتى إن الله قال للسماوات والأرض ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. فخاطبهما فخاطباه ائتيا طوعًا أو كرهًا يعني لما أمرهما به، قالتا: أتينا طائعين، فكل شيء يمتثل أمر الله عزَّ وجلَّ إلا الكفرة من بني آدم والجن، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز أن كثيرًا من الناس يسجد لله عزَّ وجلَّ، وكثيرٌ حق عليه العذاب ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨]. لا يسجد، ولهذا الكافر لا يستجيب لله، ولا يسجد لله شرعًا وتعبدًا، لكنه يسجد لله ذلاً قدريًا ما له مفر عما قضى الله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥]. والسجود هنا السجود القدري، فكل أحد خاضع لقدر الله، لا أحد يستطيع أن يغالب الله عزَّ وجلَّ، أين المفرّ؟ يقول الشاعر الجاهلي(١):

أيـــن المفـــر والإلـــه الطـــالـــب
والأشـــرم المغلـــوب ليـــس الغـــالـــب

فالسجود الشرعي كثيرٌ من الناس حق عليهم العذاب فلم يسجدوا، على أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها تسجد لله عزَّ وجلَّ.

لكن الكفرة من بني آدم ومن الجن لا يسجدون لله تعالى إلا السجود

---

(١) قاله نفيل بن حبيب يوم حادثة الفيل. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥١).

الكوني القدري ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥].

والحاصل: أن الله تعالى سخر هذه الكائنات تستغفر للعالم، وأفضل من ذلك أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع.

الملائكة الكرام الذين كرمهم الله عزَّ وجلَّ تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، هل ترون فضلاً أعظم من هذا، أن الملائكة ـ ملائكة الله عزَّ وجلَّ ـ تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، هذا فضلٌ عظيمٌ.

وبيَّن النبي ﷺ في حديث أبي الدرداء أن العلماء ورثة الأنبياء، لو سألت من الذي يرث الأنبياء؟ العبَّاد الذين يركعون ويسجدون ليلاً ونهارًا؟ لا. أقارب الأنبياء؟ لا يرث الأنبياء إلا العلماء ـ اللهم اجعلنا منهم ـ العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم من الأنبياء، وورثوا العمل كما يعمل الأنبياء ـ وورثوا الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، وورثوا هداية الخلق ودلالتهم على شريعة الله، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، توفي النبي ﷺ عن ابنته فاطمة، وعن عمه العباس، وعن أبناء عمه وعن زوجاته، ولم ترثه ابنته ولا زوجاته ولا عصبته؛ لأن الأنبياء لا يورثون درهمًا ولا دينارًا، وهذا من حكمة الله عزَّ وجلَّ أنهم لا يورثون لئلا يقول قائل: إن النبي إنما ادعى النبوة لأجل أن يملك، فيرثه أقاربه من بعده، فقطع هذا، وقيل: النبي لا يرثه ولده، وأما قول زكريا ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: ٥، ٦]. فالمراد بذلك إرث العلم والنبوة وليس إرث المال، فالأنبياء لا يورثون،

ما ورثوا درهمًا ولا دينارًا، إنما ورثوا هذا العلم - صلوات الله وسلامه عليهم - وهذا أعظم ميراث، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، أي بنصيب وافر كثير، من أخذ بهذا العلم، وأسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن أخذيه، هذا هو الإرث الحقيقي النافع، العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم.

أليس الإنسان يسعى من شرق الأرض إلى مغربها من أجل أن يحصل على مال خلفه أبوه له وهو متاع دنيا، فلماذا لا نسعى من مشارق الأرض ومغاربها إلى أخذ العلم الذي هو ميراث من؟ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

جدير بنا أن نسعى بكل ما نستطيع لأخذ العلم الموروث عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ولو لم يكن من فضل العلم إلا أن العالم كلما عمل شيئًا فهو يشعر مع إخلاصه لله عزَّ وجلّ بأن إمامه محمد ﷺ، لأنه يعبد الله على بصيرة، عندما يتوضأ يشعر كأن الرسول ﷺ أمامه، يتوضأ الآن، يتبعه تمامًا، وكذلك في الصلاة وغيرها من العبادات، لو لم يأتك من فضل العلم إلا هذا لكان كافيًا، فكيف وهذا الفضل العظيم في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، فالحاصل أن الإنسان الذي يمن الله عليه بالعلم فقد منّ الله عليه بما هو أعظم من الأموال والبنين والزوجات والقصور والمراكب وكل شيء.

فعليك بالاستكثار من ميراث النبي ﷺ وابذل الوسع في الطلب

والتحصيل والتدقيق ومهما بلغت في العلم فتذكر كم ترك الأول للآخر.

ثم اعلم أن ميراث النبيّ ﷺ إما أن يكون بالقرآن الكريم أو بالسنة النبوية، فإن كان بالقرآن الكريم فقد كُفيت إسناده والنظر فيه لأن القرآن لا يحتاج إلى إسناد، إذ أنه متواتر أعظم التواتر، وأما إذا كان بالسنة النبوية فلابد من أن تنظر، أولاً: هل صحت نسبته إلى الرسول ﷺ أم لم تصح؟ فإن كنت تستطيع أن تمحص ذلك بنفسك فهذا هو الأولى، وإلا فقلّد. فإن لم تستطع فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع.

وقولنا: «ابذل الوسع في الطلب والتحصيل والتدقيق» بذل الوسع يعني الطاقة، بذل الطاقة في التدقيق أمر مهمّ لأن بعض الناس يأخذ بظواهر النصوص وبعموماتها دون أن يدقق، هل هذا الظاهر مراد أو غير مراد؟ وهل هذا العام مخصص أو غير مخصص؟ وهل هذا المطلق مقيد أو غير مقيد؟ فتجده يضرب السُّنة بعضها ببعض ولا يدقق لأنه ليس عنده علم في هذا الأمر، لا يدقق، وهذا يغلب على كثير من الشباب اليوم الذين يعتنون بالسنة، تجد الواحد منهم يتسرع في الحكم المستفاد من الحديث، أو في الحكم على الحديث، وهذا خطر عظيم.

وفي ترجمة أحمد بن عبد الجليل من تاريخ بغداد، يقول: «مهما بلغت في العلم فتذكر كم ترك الأول للآخر» هذا كلام طيب، لكن أحسن من ذلك أن نقول: مهما بلغت في العلم فتذكر قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، يعني هذا من القرآن، وأوضح في الدلالة من

قوله: «كم ترك الأول للآخر» وتذكر أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

اللهم ارزقنا علمًا نافعًا، وعملاً صالحًا، ورزقًا طيبًا واسعًا تغننا به عن خلقك، إنك على كل شيء قدير.

* * *

١٣٨٩ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «نضَّر الله امْرءا سمع مِنَّا شيئًا، فبلَّغَهُ كما سمعهُ، فرُبَّ مبلغٍ أوْعَى مِنْ سامع[1]» رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

١٣٩٠ - وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سُئل عَنْ علم فَكَتَمَهُ، أُلجم يومَ القيامة بلجام من نار[2]» رواه أبوداود والترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

الشـــرح

ساق المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله تعالى أحاديث متعددة سبق كثير منها، ومنها حديث ابن مسعود رضي الله

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٩)، وأبوداود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، رقم(٣١٧٥)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم(٢٥٨١).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وأبوداود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم(٣١٧٣)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم(٢٥٧٣)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم(٢٦٠).

عنه أن النبي ﷺ قال: «**نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا، يعني مقالاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع**» نضر الله يعني حسنه، لأن نضر بالضاد من الحسن، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. ناضرة يعني حسنة، إلى ربها ناظرة يعني تنظر بالعين إلى الله عزَّ وجلَّ، جلعنا الله وإياكم منهم، وكذلك أيضًا قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]. أي حسنًا وسرورًا، حسنًا في الوجوه وسرورًا في القلوب، هنا يقول: نضر الله امرءًا سمع منا ـ يعني مقالاً ـ فأداه كما سمعه، والمراد بذلك أن النبي ﷺ دعا للإنسان إذا سمع حديثاً عن رسول الله ﷺ فبلغه كما سمعه، أن يحسن الله تعالى وجهه يوم القيامة.

فرب مبلغ أوعى من سامع، لأنه ربما يكون الإنسان يسمع الحديث ويبلغه ويكون المبلغ أوعى من السامع يعني أفقه وأفهم وأشد عملاً من الإنسان الذي سمعه وأداه، وهذا كما قال النبي ﷺ معلوم، تجد مثلاً من العلماء من هو راوية يروي الحديث ويحفظه ويؤديه لكنه لا يعرف معناه فيبلغه إلى شخص آخر من العلماء يعرف المعنى ويفهمه ويستنتج من أحاديث الرسول ﷺ أحكامًا كثيرة فينفع الناس، وقد سبق أن مثل الأول كمثل الأرض التي أمسكت الماء فروى الناس وارتووا لكنها لا تنبت، وأما الأرض الرياض التي أنبتت فهم الفقهاء الذين عرفوا الأحاديث وفقهوها واستنتجوا منها الأحكام الشرعية.

أما حديث أبي هريرة بعد هذا فقد توعد النبي ﷺ من سئل عن علم

فكتمه بأن يلجم يوم القيامة بلجام من نار، أي يوضع على فمه لجام من نار، نسأل الله العافية، لأنه كتم ما أنزل الله بعد أن سئل عنه، وهذا إذا علمت أن السائل يسأل لاسترشاده فلا يجوز لك أن تمنع، أما إذا علمت أنه يسأل امتحانًا وليس قصده أن يسترشد فيعلم ويعمل، فأنت بالخيار إن شئت فعلّمه وإن شئت فلا تعلمه، لقول الله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٢]. لأن الله علم أن هؤلاء يأتون النبي ﷺ يستحكمونه لا لأجل أن يعملوا بكلامه ولكن لينظروا ما عنده، فإذا علمت أن هذا الرجل جاء يسألك عن علم امتحانًا فقط، لا طلبًا للحق، فأنت بالخيار إن شئت فافعل وأَفتِه وعلِّمه، وإن شئت فلا تُفته، ولا تعلِّمه، كذلك إذا علمت أنه يحصل من الفتوى مفسدة كبيرة فلا بأس أن ترجىء الإفتاء، لا تكتم لكن لا بأس أن ترجئ الإفتاء إلى وقت يكون فيه المصلحة، لأنه أحيانًا تكون الفتوى لو أفتيت بها سببًا للشر والفساد، فأنت إذا رأيت أنها سبب للشر والفساد وأجلت الإجابة فلا حرج عليك في ذلك والله الموفق.

* * *

١٣٩١ ـ وعَنْهُ رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبْتَغى بِهِ وَجْهُ الله عزَّ وَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليُصيب بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يَوْم القِيَامَةِ[1]» يعْنِي: ريحَها، رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبوداود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، =

الشـــرح

من فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله، ما ساقه المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من طلب علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»، يعني ريحها، والعلوم تنقسم إلى قسمين:

قسم: يُراد به وجه الله وهو العلوم الشرعية وما يساندها من علوم عربية.

وقسم آخر: علم الدنيا، كعلم الهندسة والبناء والميكانيكا وما أشبه ذلك.

فأما الثاني: علم الدنيا - فلا بأس أن يطلب الإنسان به عرض الدنيا، يتعلم الهندسة ليكون مهندسًا يأخذ راتبًا وأجرة، يتعلم الميكانيكا من أجل أن يكون ميكانيكيًّا يعمل ويكدح وينوي الدنيا، هذا لا حرج عليه أن ينوي في تعلمه الدنيا، لكن لو نوى نفع المسلمين بما تعلم لكان ذلك خيرًا له وينال بذلك الدين والدنيا، يعني لو قال: أنا أريد تعلم الهندسة من أجل أن أكفي المسلمين أن يجلبوا مهندسين كفارًا مثلاً، لكان هذا طيبًا، أو يتعلم الميكانيكا من أجل أن يسد حاجة المسلمين فيما إذا احتاجوا ميكانيكيين، فهذا خيرٌ وله أجر على ذلك، لكن لو لم يرد إلا الدنيا فله ذلك ولا إثم

= رقم(٣١٧٩)، وابن ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم(٢٤٨).

عليه، كالذي يبيع ويشتري من أجل زيادة المال.

أما القسم الأول: الذي يتعلم شريعة الله عزَّ وجلَّ وما يساندها، فهذا علم لا يبتغى به إلا وجه الله، إذا أراد به الدنيا فإنه لا يجد ريح الجنة يوم القيامة، وهذا وعيد شديدٌ والعياذ بالله، يدل على أن من قصد بتعلم الشرع شيئًا من أمور الدنيا فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب، ولا يبارك له في علمه، يعني مثلاً، قال: أريد أن أتعلم من أجل أن أصرف وجوه الناس إليّ حتى يحترموني ويعظِّموني، أريد أن أتعلم حتى أكون مدرسًا فآخذ راتبًا، وما أشبه ذلك، هذا والعياذ بالله لا يجد ريح الجنة يوم القيامة، وقد أشكل على هذا أو قد روَّع هذا بعض الذين يقرءون في المدارس النظامية كالمعاهد والكليات من أجل أن ينالوا الشهادة، فيقال: نيل الشهادة ليس للدنيا وحدها قد يكون للدنيا وحدها وقد يكون للآخرة، فإذا قال الطالب: أنا أطلب العلم لأنال الشهادة حتى أتمكن من وظائف التدريس وأنفع الناس بذلك أو حتى أكون مديرًا في دائرة أُوجِّه مَنْ فيها إلى الخير، فهذا خيرٌ ونية طيبة وليس فيها إثم ولا حرج.

وذلك أنه مع الأسف في الوقت الحاضر صار مقياس كفاءة الناس الوحيد هذه الشهادات، فالحاصل عليها يتوظف ويتولى قيادةً على حسب هذه الشهادة، كما يتولى التدريس في الكليات والجامعات، أما غيره ولو كان لديه إلمام جيد في العلم فلا يحصل على الميزات لأنه لا يحمل شهادة، فنظرًا لأن الأحوال قد تغيرت وانقلبت إلى هذا المآل، نقول: إذا طلبت العلم من أجل أن تنال الشهادة التي تتمكن بها من تولِّي التدريس،

لا لأجل الدنيا لكن لأجل نفع الخلق فإن هذا لا بأس به ولا تُعَدُّ قاصدًا بذلك الدنيا ولا ينالك هذا الوعيد، فالحمد لله، إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فهذا ميزان وانظر قلبك ماذا نوى.

فعلى هذا فالذي يطلب العلوم الشرعية في الجامعة من أجل أن ينال الشهادة نقول: ما الذي تريده: هل أنت تريد أن تنال الشهادة من أجل أن تكون في المرتبة الفلانية وراتبك كذا وكذا، إذا قال: نعم، أنا أريد هذا. نقول: خبت وخسرت، ما دمت تريد الدنيا.

أما إذا قال: لا، أنا أريد أن أنفع الخلق، لأنه الآن لا يمكن الوصول إلى نفع الخلق بالتدريس إلا بالشهادات وأنا أريد أن أصل إلى هذا، كما أنه لا ينال الإنسان وظيفة كبيرة يكون قائدًا فيها على جماعة من المسلمين إلا بالشهادة وأنا أريد هذا، قلنا؛ الحمد لله، هذه نية طيبة وليس عليك شيء، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى. المهم: أن تحذر أخي طالب العلم من النيات السيئة، فالعلم الشرعي أعزُّ وأرفع وأعلى من أن تريد به عرضًا زائلاً من الدنيا، ولو بقيت عندك الدنيا فلابد إما أن تفارقها أو تفارقك، إما أن تفتقر وتعدم المال وإما أن تموت ويذهب المال لغيرك.

لكنَّ أمور الآخرة باقية، فلماذا تجعل العلم الشرعي الذي هو من أَجَلِّ العبادات وأفضل العبادات سُلمًا لتنال به عرضًا من الدنيا؟ إنَّ هذا سفه في العقل وضلال في الدين، لابد أن تجعل العلم الشرعي لله عزَّ

وجلَّ ولحماية شريعته سبحانه وتعالى، ورفع الجهل عن نفسك وعن إخوانك المسلمين وللدلالة على الهدى ولتنال ميراث النبي ﷺ لأن العلماء ورثة الأنبياء، نسأل الله أن يخلص لنا ولكم النية ويصلح العمل، إنه على كل شيء قدير.

* * *

١٣٩٢ ـ وعَنْ عَبدِ اللهِ بن عَمرِو بن العاص رضي الله عنهما قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إنَّ الله لا يَقْبِضُ العِلْمَ انتِزَاعًا ينتزعُهُ من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماءِ حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتَّخذ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالاً، فَسِئُلوا، فأَفْتَوا بغير علمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا[١]» متفقٌ عليه.

الشـــرح

ساق المؤلف الحافظ النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله تعالى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا من صدور الرجال**» ففي هذا الحديث إشارة إلى أن العلم سيقبض، ولا يبقى في الأرض عالم يرشد الناس إلى دين الله، فتتدهور الأمة وتضل ثم بعد ذلك ينزع منها القرآن، ينزع من الصدور، ومن المصاحف. فكما قال أهل السنة: إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، قالوا: معنى وإليه يعود أي يرجع إلى الله

---

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم(٩٨)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، رقم(٤٨٢٨).

عزَّ وجلَّ في آخر الزمان حين يهجره الناس هجرًا تامًّا لا يقرؤونه ولا يعملون به، ونظير ذلك الكعبة المشرفة حماها الله عزَّ وجلَّ لما أراد أبرهة أن يهدمها وقدم إليها بفيل عظيم وجنود كثيرة حماها الله عزَّ وجلَّ منه وأنزل الله في ذلك سورة كاملة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ طيور أرسلها الله عزَّ وجلَّ، أبابيل يعني جماعات متفرقة كل واحد في منقاره وبين رجليه حجارة من سجيل يعني من طين مشوي صلب فكانت هذه الطيور بأمر الله ترسل هذه الحجارة على هؤلاء الجنود حتى أنها تضرب الرجل من رأسه وتخرج من دبره - نعوذ بالله-، حتى جعلهم كعصف مأكول يعني كعصف الزرع الذي أكلته البهائم واختلط بعضه ببعض، لكن في آخر الزمان إذا انتهك الناس حرمة هذا البيت وأكثروا فيه من المعاصي وغير ذلك مما يعد امتهانًا لحرمته سلط الله عليهم رجلاً من الحبشة أبعج قصيرًا فينقضها حجرًا حجرًا، يأتي إليها بجنود، فينقضها يهدمها حجرًا حجرًا، إذا نزع الحجر أعطاه أحد الجنود ثم التالي الذي بجنبه من مكة إلى البحر، يتمادون حجارتها حتى تهدم عن آخرها، فانظر واعتبر وتأمل فقد حماها الله عزَّ وجلَّ - في الزمن الأول - من أولئك الكفرة؛ لأنه يعلم أنه سيبعث فيها رسولاً ينقل الناس من الضلال والظلم والشرك إلى الهدى والعدل والتوحيد. أمّا في آخر الزمان عندما ينتهك الناس هذه الحرمة فإن الله يسلط عليها بحكمته مَنْ يهدمها،

ولا أحد يقول شيئًا، ولا أحد يعارض هذا الرجل، والله عزَّ وجلَّ بحكمته يمكِّنه من ذلك، وكذلك القرآن الكريم ينتزع من الصدور ومن المصاحف ويرفع إلى الرب عزَّ وجلَّ، لأنه كلامه منه بدأ وإليه يعود.

العلم أيضًا لا ينتزع من صدور الرجال لكنه يقبض بموت العلماء، يموت العلماء الذين هم علماء حقيقة ولا يبقى عالم، فيتخذ الناس رؤساء، يعني يتخذ الناس من يترأسهم ويستفتونه، لكنهم جهال يفتون بغير علم فيَضِلُّون ويُضِلُّون، والعياذ بالله، وتبقى الشريعة بين هؤلاء الجهال يحكمون بها بين الناس وهم جهلة وحينئذٍ لا يوجد الإسلام الحقيقي الذي يكون مبنيًّا على الكتاب والسنة؛ لأن أهله قد قبضوا.

وفي هذا الحديث حث وتأكيد على طلب العلم حتى لا نصل إلى الحال التي وصفها الرسول ﷺ.

والإخبار بالواقع لا يعني إقراره. يعني إذا أخبر الرسول ﷺ عن شيء ليس معناه أنه يقره ويسمح فيه، كما أخبر عليه الصلاة والسلام وأقسم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» يعني لتركبن طرق من كان قبلكم - قالوا: اليهود والنصارى، قال: «**نعم، اليهود والنصارى**[1]»، فأخبر أن هذه الأمة سوف ترتكب ما كان عليه اليهود والنصارى، إخبار تحذير لا إخبار تقرير وإباحة، فيجب أن نعلم الفرق بين ما يخبر به الرسول مقررًا له ومثبتًا له،

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ لتتبعن...، رقم(٦٧٧٥).

وما يخبر به محذرًا عنه، فالرسول ﷺ أخبر بأن العلماء سيموتون ويعني ذلك أن نحرص حتى لا يدركنا هذا الوقت الذي يموت به العلماء ولا يبقى إلا هؤلاء الرؤوساء الجهال الذين يفتون بغير علم فَيضِلُّون بأنفسهم ويُضِلُّون غيرهم.

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا، وعملاً صالحًا، ورزقًا طيبًا واسعًا.

❊ ❊ ❊